عائشة

بنت أبي بكر الصديق

-رضي الله عنهما-

إعداد

خالد الحمودي









بسم الله الرحمن الرحيم

الرؤيا:

مضت فترة على زواج النبي ﷺ من «سودة» ثم استيقظ صبيحة يوم مسترجعًا في مخيلته ذكرى حلم رآه، فقد جاءه جبريل - عليه السلام - بقطعة قماش حريري عليها صورة «عائشة بنت أبي بكر» وقال له: «إنها زوجتك في الدنيا والآخرة».

فأخذ ﷺ يفكر في أمر هذه الرؤيا.. ثم صرفه ذهنه عنها معتبرًا إياها أضغاث أحلام ولم يولها عنايته واهتمامه فقد كانت مشاغل الدعوة وأعباء الرسالة أكبر من هذا الخاطر العابر وأعظم منه، لكن الرؤيا تكررت ليومين على التوالي فأدرك النبي ﷺ أنها أمر من الله – سبحانه وتعالى -.. ولابد من تنفيذ أمر الله. ثم بكر – عليه الصلاة والسلام – إلى دار أبي بكر رضي الله عنه فاستقبله مرحبًا.

ولما استقر المقام بالنبي ﷺ قص على أبي بكر رؤياه فأصغى رضي الله عنه وقد أدرك أن النبي ﷺ قد جاءه خاطبًا. ثم التفت إلى النبي ﷺ وقال: «**إنها ما زالت صغيرة يا رسول الله... وسأرسلها إليك لتراها**».

ثم غادر رسول الله ﷺ دار أبي بكر، كانت السعادة والفرحة تغمران نفس الصديق فإنه لشرف عظيم ومنزلة سامية أن يصاهره النبي ﷺ ثم دخل حرم أهله ونادى «عائشة» والتي كانت منهمكة في اللهو بدماها، ثم حملها إناء فيه تمر وطلب إليها أن توصله إلى بيت رسول الله ﷺ وتقول له: «هذا كل ما عندنا يا رسول الله ﷺ فهل يوافقك؟» فعل أبو بكر رضي الله عنه ذلك بعد أن أخبر زوجته أم رومان بالأمر وأخذ رأيها.

الخطبة:

أسرعت «عائشة» الطفلة الفتاة إلى بيت رسول الله ﷺ فهشَّ لها وحياها، ثم قدمت له وعاء التمر الذي أرسلت به وقالت له ما علمها أبوها ثم عادت ثانية إلى والدها فسألها:

«ماذا قال يا بنية؟ أجابت: قال: نعم وعلى بركة الله»، لقد ذهبت «عائشة» إلى بيت النبي ﷺ تنفيذًا لأمر أبيها وهي لا تدري من أمر هذه الزيارة شيئًا ولا الغاية منها، إذ كانت صغيرة في السن، ولا تدرك معها منطويات هذه الأمور وأهداف هذه التحركات وأبعادها ومراميها.

لقد ارتاحت نفس الصديق رضي الله عنه غاية الراحة وسر غاية السرور لجواب النبي ﷺ وخطبت عائشة لرسول الله ﷺ وهي بنت سبع سنين (على أصح الروايات) وبقي أمر هذه الخطبة مكتومًا لا يعلم به أحد سوى رسول الله ﷺ وأبو بكر وزوجته أم رومان وكان رسول الله ﷺ كثير التردد على أبي بكر فيوصي بعائشة خيرًا؛ إذ كانت طفلة صغيرة لا تفقه من شئون الحياة إلا القليل وكانت مثل صديقاتها في سنها تقضي معظم أوقاتها لاهية لاعبة تأخذ دميتها في حجرها فتسرح لها شعرها أو تلبسها خرقًا تسميها ثيابًا أو تهدهدها لتغفو.

لقد وثقت هذه الخطبة أواصر المحبة والصداقة بين رسول الله ﷺ وصديقه الحميم أبي بكر رضي الله عنه وزادتها متانة وقوة.

الزواج:

سنوات الكفاح والجلاد والجهاد حتى كانت الهجرة إلى المدينة وبعد أن استقرَّ المقام بالمسلمين فيها، وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وجمع بين الأوس والخزرج على طريق الإيمان والإسلام وعاهد يهود المدينة من بني قينقاع وبني النضير على التعايش بأمن وسلام لا يغدروا بالمسلمين ولا ينصروا عليهم عدوًا ولهم دينهم وشئون حياتهم الخاصة، بعد هذا كله جاءه أبو بكر الصديق ﷺ مذكرًا يمشي على استحياء.. جاءه ﷺ في ساعة من صفاء وراحة قائلاً: «ما الذي يمنعك أن تبني بأهلك يا رسول الله؟» فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وكأنه تنبه إلى نفسه وفكر في خطبته لعائشة التي مضت عليها سنوات فعائشة اليوم قد اكتملت أنوثة، وهي أصلح ما تكون لإتمام الزيجة فأجاب ﷺ أبا بكر بالإيجاب والابتسامة الرقيقة لا تفارق ثغره الشريف.

في بيت رسول الله:

دخلت عائشة – رضي الله عنها – بيت رسول الله ﷺ تحمل ضمن جهازها المتواضع جدًا الدمى!! إذ كانت رغم اكتمال أنوثتها ما تزال في سن مبكرة تغلب عليها السذاجة وطابع الطفولة.

فقد دخل رسول الله ﷺ بيته يومًا فوجد عائشة قد صفَّت العرائس وجعلت لبعضها أجنحة فسألها «**عما تصنع**» فقالت: «إنهن خيول سليمان»، فتبسم رسول الله ﷺ وعاد يسألها: «**وما هذه الأجنحة**» فقالت: «ألم تكن لسليمان خيول ذات أجنحة يطرن بها؟» فضحك رسول الله ﷺ ولم يكن ليتضايق منها أو يتألم

أو يبدي ضجرًا أو اشمئزازًا ولكنه كان يرعاها رعاية الأب الحنون أو الوالد العطوف كيف لا؟ وهو نبي الرحمة وهو الذي يقول: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»، وفي ذات يوم دخل الدار فرأى عائشة – رضي الله عنها – قد غلبها النوم والشاة تأكل الخبز الذي أعدته فتبسم من ذلك ثم أيقظها برفق وواساها حين أبدت ندمها وحزنها على ما فرطت وأهملت، لقد كان – عليه الصلاة والسلام – معلمًا عظيمًا وأبًا كريمًا وزوجًا وفيًا..

وبهذه الصفات التي حلاه ربه بها، والمبادئ التي بشر بها انتصر على الجهل فأيقظ العقول، وحطم الأوثان، وقضى على الشرك فمحا من القلوب ما ران عليها من أدران العبودية لغير الله تعالى.

الزوجة الوفية:

كبرت عائشة – رضي الله عنها – ونضجت واستوت عقلاً وفهمًا وإدراكًا فكانت سيدة بيت رسول الله ﷺ ترعى شئونه وتدبر أموره وتواسيه حين تجب المواساة وتطيعه في توجيهاته وتحفظ عنه الكثير من أقواله وتتأسى بأفعاله وتقوم بأمور بيت الزوجية خير قيام، وعرف رسول الله ﷺ لها ذلك الفضل فكانت أحب نسائه إليه، وعرف فيها الذكاء والوفاء والوعي والفهم.

لكن عائشة – رضي الله عنها – لم تكن لتفارقها طباع النساء من غيرةٍ، فقد حدث مرة أن خرج رسول الله ﷺ في إحدى الغزوات واصطحب معه من نسائه عائشة وحفصة وفي الطريق رأت حفصة كثرة اقتراب النبي ﷺ من هودج عائشة يكلمها ويحدثها فخطر لها خاطر، فما أن ابتعد النبي ﷺ عن هودج عائشة

حتى اقتربت منها حفصة وأسرت إليها بكلام تضاحكتا بعده، ثم استبدلتا ركوبيهما عائشة في هودج حفصة وحفصة في هودج عائشة، ثم أقبل رسول الله ﷺ يكلمها وهو لا يعلم أن حفصة بداخله فكلمته وحدثته على أنها عائشة، وعندما أقبل المساء وتوقف الركب عن المسير وقصد النبي ﷺ خباء عائشة فوجئ بحفصة في داخله.. لكنه ﷺ لم يبدِ انزعاجًا وقضى ليلته عندها وكانت ليلة ليلاء على عائشة التي حرمت من بركته ﷺ وأضاعت فيها نصيبها وأرقت طوال ليلها و لم يعرف النوم سبيلاً إلى عينيها ولامت نفسها إن عادت لمثل ذلك.

الزوجة الغيور:

وفي ذات ليلة خرج رسول الله ﷺ إلى البقيع حيث مدافن المسلمين وكثيرًا ما كان يخرج إليها ليلاً بعد صلاة الفجر يزور أهل البقيع ويسلم عليهم ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ويتذكر الموت والآخرة. فاستفاقت عائشة فلم تجده بجوارها فقلقت وتحيرت في أمرها وظلت على حالها تلك حتى عاد الرسول ﷺ ورأى ما هي عليه من الهم والأرق، فأنكر ذلك منها وقد ظنت أنه ﷺ قد خرج إلى إحدى نسائه غيرها، فقال لها: «**إذًا فقد غلبك شيطانك يا عائشة!!**» فسألته أي شيطان يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**نعم لكل إنسان شيطان**» فأردفت: وحتى أنت يا رسول الله!؟

فأجابها ﷺ: «**نعم ولكن الله – تعالى – أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**» بمعنى أنه استسلم و لم يعد له سلطان عليه أو بمعنى أسلم أي دخل الإسلام على قول بعض أهل العلم.

ولقد وصل حب النبي ﷺ لعائشة – رضي الله عنها – إلى جعل باقي نسائه – عليه الصلاة والسلام – تشتد غيرتهن منها وتدفعهن تلك الغيرة أن يرسلن فاطمة الزهراء – رضي الله عنها – إلى أبيها يطلبن العدل بينهن. فجاءت أباها تنقل إليه احتجاج أزواجه فغضب – عليه الصلاة والسلام – وأعرض عنها بوجهه مع حبه الشديد لها.. لكن فاطمة أعادت الحديث وكررت الطلب وكانت لها دلال على أبيها ﷺ فقال لها:

«**أو لست تحبين ما أحب؟**» فردت بلى يا رسول الله... فقال لها:

«**إذًا أحبي هذه**» فسكتت فاطمة برهة أضاف بعدها ﷺ قائلاً: «**فليتقين الله في عائشة فوالله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في فراش واحدة منهن غيرها**».

يا نساء النبي:

وفتن الشيطان يومًا نساء النبي ﷺ ووسوس إليهن أن يطلبن زيادة النفقة والتوسعة عليهن فغضب لذلك غضبًا شديدًا وأقسم أن لا يدخل بيوتهن شهرًا...! كما خيرهن بين متعة الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها وبين العيش في كنف النبوة وظلال الرسالة. ولما آثرن البقاء بجانبه ﷺ كان أول بيت دخله من بيوت أزواجه هو بيت عائشة وكان مما قالته يومئذ معتذرة لرسول الله ﷺ: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله أفي هذا تخيرني؟ بل أختار الله ورسوله» وعاد الصفاء والود إلى بيت رسول الله ﷺ وانزاحت السحب والغيوم التي تلبدت في سمائه فترة من الزمن.

حديث الإفك:

ولقد كان حديث الإفك من أشد وأصعب ما واجهت عائشة – رضي الله عنها – في حياتها ومن أقسى ما تعرض له بيت النبوة إلى أن تنزلت آيات الله – تعالى – في سورة النور تكشف الغمة وتبددها.

فلقد خرج النبي ﷺ في جيش من المسلمين في المدينة إلى ديار بني المصطلق لتأديبهم ومعاقبتهم على ما كان منهم وكان سهم الخروج من نصيب عائشة من بين أزواجه. وحين تم النصر للمسلمين على بني المصطلق الذين لقوا جزاء غدرهم ونفاقهم ووزعت الغنائم والأسلاب وقد التقى عند حوض المساء كان يستقي من المسلمين أحد الأنصار وأحد المهاجرين فتزاحما وتنافرا وكاد خصامهما يؤدي إلى اشتباك بين المؤمنين. ومما زاد في تأجيج نار الفتنة ما قاله رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل.

وسمع أحد المسلمين تلك المقالة وشهد الحادثة ومن ثم رأى بوادر الفتنة فأسرع إلى رسول الله ﷺ ينقل له الخبر وما قاله ابن سلول فرأى – عليه الصلاة والسلام – أن من الحكمة أن يشغل الناس عن الفتنة بالمسير على الفور بعد أن أقاموا للاستراحة. في أثناء ذلك كانت عائشة قد خرجت من خبائها لقضاء حاجة بعيدًا عن معسكر المسلمين وهي لا تدري من أمر ما يحدث شيئًا وابتعدت كثيرًا وحين رحل المسلمون رفع هودجها من مكانه ظنًا من قائده أنها بداخله ومضى المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

عادت عائشة مما ذهبت إليه وافتقدت عقدًا كانت تزين به جيدها فلم تجده فرجعت سريعًا إلى حيث كانت ولملمت حبات العقد المتناثرة وعادت على جناح السرعة وحين بلغت طرف المعسكر ومكان الهودج لم تجد أثرًا لبشر فارتاعت وجزعت وألم بها خوف شديد ثم لبثت في مكانها لا تدري كيف تتصرف وماذا تفعل! وكان من عادة رسول الله ﷺ القائد الظافر الخبير أن يرسل إثر كل غزوة رجلاً من أصحابه اسمه صفوان بن المعطل يستدرك ما فاته المسلمون عند رحيلهم، وفوجئت عائشة – رضي الله عنها – بخيال فارس يأتي حيث تقف فأرخت حجابها وعندما لمحها صفوان غض بصره وقال في دهشة وعجب!! ظعينة رسول الله؟ ما خلفك رحمك الله؟ وما الذي أخرجك؟ ثم نزل عن بعيره وتأخر حتى ركبت ثم تقدم وأمسك بالمقود وشغل بال رسول الله ﷺ على عائشة حتى عادت واطمئن عليها وسمع بعذرها وصدقها بعد أن افتقدها فلم يجدها واهتم لأمرها.

وكان عندما أطل موكب صفوان وعائشة على مداخل المدينة المنورة ولمحه ابن سلول المنافق الذي كان جالسًا مع بضعة نفر من أتباعه ووجد المادة التي يتسلى بها والسم الذي ينفث لينفس عن حقده وحسده لرسول الله ﷺ وعلى المسلمين فقال: أيها الناس ظعينة نبيكم عادت في ركاب رجل والله ما نجت منه ولا نجا منها وسرت أكذوبة ابن سلول بين الناس مسرى النار في الهشيم وتناقلتها الألسنة تصريحًا وتلميحًا.

لكن عائشة – رضي الله عنها – دخلت منزلها خالية الذهن لا

تدري من أمر هذا الإفك والافتراء شيئًا ثم وصل الهمس إلى أذن رسول الله فعاش فترة من الحيرة والقلق والهم الشديد، يبدو ذلك على محياه الشريف ويظهر في تصرفاته وكانت عائشة تعلل تلك الظواهر في وجهه ﷺ أو انصرافه عنها بسبب انشغاله بأمور الدعوة وشئون المسلمين، وحين استفحل الأمر وقد شعرت – رضي الله عنها – بالمرض يداهما استأذنت رسول الله ﷺ أن تذهب إلى بيت أبيها كي تقوم أمها على خدمتها ورعايتها ولقي طلبها هذا سرعة استجابة من رسول الله ﷺ مما جعلها تحزن وتتوجس لأنه – عليه الصلاة والسلام – لم يكن ليطيق فراقها أو ابتعادها عنه ودخلت عائشة مترل والدها الصديق الحزين رضي الله عنه الذي ما انفك يدعو الله – تعالى – أن يبرئ ساحة ابنته. وقضت في بيت أبي بكر رضي الله عنه قرابة العشرين يومًا حتى شفيت من مرضها.

وفي ليلة خرجت مع امرأة من ألأنصار ممن كن يزرها لقضاء حاجة بعيدًا في الخلاء وبينما كن في الطريق عثرت المرأة بطرف ثوبها وكادت تسقط أرضًا فقالت: تعس «مسطح» فانتفضت عائشة وقالت بحدة وغضب: بئس لعمر الله ما قلت في رجل من المهاجرين ممن شهدوا بدرًا... فقالت المرأة: عجبًا وتدافعين عنه أو ما بلغك الخبر يا ابنة أبي بكر؟ فأجابت عائشة مستفسرة بدهشة: وما الخبر؟ فقصت عليها المرأة حديث الإفك وما يشاع عنها وما يروجه دعاة السوء من أقاويل وافتراءات. وكان مسطح بن أثاثة واحدًا من الذين أطلقوا لألسنتهم العنان ينالون به من شرف عائشة

وسمعتها، ولما فرغت المرأة من الحديث كاد يغمى على عائشة فتماسكت وعادت إلى البيت تبكي وتنتحب وتلوم أمها لأنها كتمت عنها الخبر رأفة بها، وراحت الأم تخفف من حدة غضب «عائشة» والدموع تنهمر من عينيها فتغسل وجهها وتقول: أي بنية هوني عليك الشأن فوالله ما كانت امرأة حسناء عند زوج يحبها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها لكن أين عائشة وأين أمها!!

لقد كانت في هم شديد، الدنيا كلها في نظرها مظلمة سوداء. فقبعت في الدار متوارية عن الناس عازفة عن الطعام والشراب لا تغفو ولا تنام تبكي وتنشج. ولم يكن سكوت رسول الله ﷺ سكوت الصدق – معاذ الله – ولكن سكوت الصابر حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. وحين كثر القيل والقال خطب في الناس فقال: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك في رجل ما علمت منه إلا خيرًا وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي** (يعني صفوان بن المعطل)» فسكت الناس جميعًا ثم أراد رسول الله أن يستشير خلصاءه في هذا الأمر وأصفياءه فاستدعى إليه ابن عمه علي بن أبي طالب وحبه أسامة بن زيد وسألهما رأيهما فقال أسامة: إنك لأعلم الناس بعائشة يا رسول الله وإن الناس لتكذب وما عرفت عنها إلا خيرًا، وأما علي فقال: يا رسول الله إن النساء كثيرات وإنك لقادر على أن تستخلف (أي تنجب الأبناء) وسل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله جاريتها ليسألها فتقول بريرة: والله ما أعلم إلا خيرًا وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلا أني كنت أعجن فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله!

وحين سأل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ قال: تسألني يا رسول الله عن عائشة وإني بدوري أسألك: من زوجك إياها؟

فأجاب رسول الله بهدوء: «الله تعالى».

فقال عمر: إذًا أفتظن أن الله قد خدعك ودلس عليك فيها؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

البراءة من السماء:

وفتر الوحي وتوقف مدة عن رسول الله ﷺ، مما جعل لألسنة السوء والفحشاء مجالاً وميدانًا فسيحًا...!

ولم يبق أمام رسول الله ﷺ إلا المواجهة فعزم على الذهاب إلى دار أبي بكر ﷺ وحين دخل – عليه الصلاة والسلام – إلى الدار كانت عائشة تبكي وبجوارها امرأة من الأنصار، فكفكفت دمعها ومسحت عينيها، ثم جلس رسول الله قبالتها يسألها: «**يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله؛ فإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقولون فتوبي إلى الله إن الله يقبل التوبة من عباده**».

ونزل القول على رأس عائشة نزول الصاعقة، فخيم الصمت الرهيب على المكان وشمل الجميع السكوت.. ولكن عائشة وحدها تكلمت ودموعها تدفقت من عينيها بغزارة، تكلمت لتدافع عن نفسها ثم نظرت إلى والديها وقالت صائحة صارخة: ألا تجيبان؟!

فقالا: «والله ما ندري بماذا نجيب». فعادت إلى البكاء مع النشيج والنحيب، وقد تقطعت نياط قلبها حزنًا وألمًا ثم التفتت إلى رسول الله ﷺ قائلة: «والله، لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنكرت ما يقولون لا يصدقوني، إنما أقول كما قال أبو يوسف (يعقوب - عليه السلام -) «فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون»، ثم عاد السكون يلف المكان بردائه الشامل، وشعر رسول الله بأن الوحي يكاد يترل عليه فسجى في ثوبه وأتته عائشة بوسادة من أدم وضعتها تحت رأسه وفزع الجميع إلا عائشة الطاهرة البرئية.

وحين استفاق -عليه الصلاة والسلام- من غشية الوحي وهو يتصبب عرقًا كالجمان قال: «أبشري يا عائشة قد أنزل الله براءتك...!» فصاحت والفرحة تغمر قلبها: «الحمد الله» ثم تلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا

يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٨].

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأشخاص الذين كانوا يروجون ويفترون ويقذفون فنالوا جزاءهم.

وعادت الطاهرة البريئة إلى بيتها وإلى مقامها في قلب رسول الله ﷺ وإلى مكانتها الرفيعة في نفوس المسلمين جميعًا.

بعد رسول الله:

فتح المسلمون مكة وطهروا البيت الحرام من دنس الأوثان والأصنام وارتفعت كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» مدوية في سماء الجزيرة العربية وبعد أن حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وتلا عليهم يومها قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] دمعت عينا أبي بكر ﷺ - إذ شعر بقرب لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وانتقاله إلى جوار ربه.

في بيت عائشة:

وحين دهمت الحمى رسول الله ﷺ سأل نساءه مستأذنًا بكل ما كان يتمتع به من أدب النبوة أن يمرض في حجرة عائشة فأذن له.

فقامت عائشة – رضي الله عنها – المُحبة الوفية بتمريضه ﷺ والاعتناء به على خير ما يكون الحب والوفاء، وأوصى ﷺ أن يدفن في حجرتها وهكذا كان. ولقد كانت – رضي الله عنها – أكثر نسائه وأهله حزنًا لفراقه وألمًا لبعاده وهي تذكر سالف أيامها معه

وسنوات عمرها التي رافقته فيها. وتولى والدها أبو بكر خلافة المسلمين ثم تبعه عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – والكل يعرف لها مكانتها ومترلتها وفضلها وعلمها. فكم من قول وفعل كان لرسول الله ﷺ أخذ عنها وسمع منها، وفي هذا نستطيع القول أن شطرًا وجانبًا هامًا من الأحكام الفقهية كان مصدره عائشة – رضي الله عنها – فهي الحافظة الراعية لخصوصيات البيت النبوي الشريف، ولما كانت خلافة الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁ وظهرت بوادر الفتنة مكشرة عن أنيابها كان بيت عائشة ذلك الحين ملتقى كبار الصحابة – رضوان الله عليهم – يعرضون عليها ما يرون وما يسمعون ويطلبون أن تدلي برأيها في الأمور كي يستقيم الحال وينضبط الوضع لكنها كانت تتردد خشية الدخول في باب لا تدري إلى أين ينتهي.

واستشهد عثمان ﵁ وقتل ظلمًا وغدرًا ووقعت الواقعة وتولى علي بن أبي طالب ﵁ الخلافة، وحاول الأمويون عشيرة عثمان وأهله أن يتخذوا من استشهاده ذريعة للخلاف بينهم وبين علي والانتقاض عليه، يطالبونه بالاقتصاص الفوري من قتله عثمان ويؤخرهم في ذلك ريثما تهدأ أعاصير الفتنة ورياحها وجاء إلى عائشة من يوغر صدرها على علي ويذكرها بما قاله في شأنها يوم حادثة الإفك، وخرجت جموع من الناس فيهم الزبير بن العوام وولداه عبد الله وعروة وطلحة بن عبد الله يتهمونه بالتلكؤ في القصاص من قتلة عثمان، وبدأت محاولات للمصالحة وكادت المصالحة تتم حتى أن الزبير بن العوام غادر الميدان فعلاً، إلا أن

سهمًا مجهول المصدر أصاب طلحة بن عبد الله فوقع ﷺ شهيدًا، وسالت دماء المسلمين وحدثت موقعة «معركة الجمل»، حيث كانت عائشة – رضي الله عنها – تركب جملاً فسميت بهذا الاسم، وكان عليٌّ ﷺ وفاء منه لرسول الله ﷺ كريمًا فأكرم عائشة وحفظها من كل سوء. وأنزلها مترلاً مباركًا وأعادها مع أخيها محمد بن أبي بكر إلى المدينة معززة مصونة مكرمة محترمة.

الوفاة:

مرضت عائشة – رضي الله عنها – وكان قد سبقها إلى الدار الآخرة معظم نساء النبي ﷺ ثم اشتد عليها المرض حتى فارقت الحياة الدنيا، جرى دفنها في البقيع وكانت وفاتها سنة ثمان وخمسين من الهجرة ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان على أرجح الأقوال.

وقد بلغت من العمر تسعة وستين عامًا وكان الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ ممن حضر جنازتها وبينما هو في طريق عودته من البقيع بعد الدفن وقد فاضت عيناه بالدموع كان يردد: رحم الله أم المؤمنين عائشة لقد كانت حياتها صفحة ناصعة شديدة النقاء بالغة الطهارة – رضي الله عنها وأرضاها – وأكرم نزلها ومثواها وألحقنا بها في الصالحين من عباده.

فاكس: ٦٠٧٢٢١١
ص ب: ٥ الرمذي البريدي: ١١٣٢٢
وكالة الربوة - جدة

فلنتصارح

يا ... أبي

إعداد

دار القاسم

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

أبي.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

لقد فتحت عينيَّ أول ما فتحتهما عليك.. وصرتُ أنظر إلى الحياة من عدسة واحدة هي أنت.. بل وأقيس الرجال كلهم عليك فقط.. وأُعجب بك وبتصرفاتك ويوم أن كبرتُ.. وتعلمتُ.. واتسعت مداركي وتعددت المصادر أمامي صرتُ بعدها أعيش معك في حلم مزعج، تموج فيه صور شتى بالمتناقضات اللامفهومة!!

وكم عانيْتُ من التردد في إبلاغك ذلك؛ لما أحسه من ثقلها عليك، غير أنه لا مناص من الصراحة فيها.. والصراحة إذ ذاك كمبضع يستأصل به ورمًا مزمنًا.

وإذا بي أراها صورًا حقيقية، تتكرر في حياتي اليومية.. وياليتها كانت حلمًا!! فلقد صرتُ بعدها أفكر فيك كثيرًا.. وأتساءل.. هل أنت ناصح في تربيتك أو غاش لنا؟.. وبشكل سريع تمرُّ صور كثيرة لك معنا تثقل كفة الغش على كفة النصح.. فأجاهد نفسي لطردها.. وأحاول أن أشيح بوجهي عنها.. فتدمع عيني وأنا أتذكَّر قول النبي ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة**».

أبي العزيز:

.. ربما يكون في كلماتي شيء من الحرارة. بيد أنها أخفُّ بكثير من حرارة الهموم المضطرمة بين جوانحي..

.. فتحمَّلها من ابنتك يا أبي..

أبي – رعاك الله -:

لقد رأيت الحياة قبل أن أراها.. وسَبَرتَها قبل أن أعرف شيئًا منها.. ولا أظنُّك – بعد كل هذا – تجهل ما للصديق من أثر على صديقه.. ومن تغيير لسلوكه وأخلاقه.. والصاحبُ ساحبٌ كما تقول العرب.. ولو أردت يا أبي أن أغوص لك في عالم النِّساء لطال علينا الحديث..

غير أن الذي يهمني هنا تنبيهك إلى ما أغمضتَ عينيك عنه كثيرًا.. وأغفلته أبدًا.. من النظر إلى مَنْ يصاحبني أو يجالسني من قريباتي أو في المدرسة..

فكم كنت كثيرًا ما ترفع سماعة الهاتف.. ثم تناديني بأن المكالمة لك وليس إلا زميلات المدرسة.. ولكن لم أسمع ولا مرَّة واحدة سؤالاً عمَّن اتصل بي.. من هي؟ هل الكلام ضروريٌّ حتى يطول الحديث؟.. هل هي من ذوات الأخلاق في المدرسة؟ هل هي قرينتك في المدرسة؟..

وغيرها من الأسئلة التي كنتُ أتوقعها كثيرًا..

وكذلك فأنت تعرف ابنة عمي (...) كيف كانت تعبث بشعرها، وتغير وجهها بالأصباغ والألوان إلى حدٍّ يستحي المتحدِّث معها أن يُحدَّ النظر فيه.. وهي مزهوَّة منتفشة.. تظنُّ ذلك تقدُّمًا وتطورًا كما ترى في الشاشة أو على صفحات المجلات.. وذلك كله نتيجة لرضا عمي لها أن ترى كل شيء.. حتى العرض الفضائي – عافانا الله من ذلك-.

هذا شكلها.. أما كلامها.. أمنياتها.. أفكارها.. فلا تعجب من غرابتها وسفاهتها.. وهي بحقٍّ عيِّنة تجربة تتقلب بين أيدي نساء الكفر الفارغات.. عن طريق القنوات أو علي صفحات المجلات.. حتى ليمكنك القول بأنها امرأة أجنبية في مسلاخ ابنة عميّ!! ولكن..

.. ولكن – مع علمك بهذا كله – لم أر منك ولا كلمة واحدة تنصحني فيها بعدم إكثار الكلام معها.. أو الإعجاب بشكلها، أو كثرة مجالستها في اجتماعاتنا.

وعلى الطرف الآخر.. عندما ترى ابنة عمَّتي (...) فتاة طيبة متمسكة بدينها.. تدرس في مدارس تحفيظ القرآن.. وتحرص على المفيد كثيرًا.. وأنت تلمس ذلك حينما نعود من زيارة عمتي وقد حُمِّلْنا بالكتب النافعة والأشرطة المفيدة.. ولكن.. ومع علمك بهذا أيضًا لم أر منك ولا كلمة واحدة في تشجيع هذا المسلك والثناء على صاحبه.. ولم أر منك نصحًا في التقرب من ابنة عمتي في اجتماعاتنا العائلية.

.. وحينها أشكِّك في نفسي.. هل كان تفريقي بين الصورتين خطأ؟ أم إن أبي لا يعرف الخطأ من الصواب!.. أم هي الثقة بأن النساء معصومات، لا يقضى عليهن بالتأثر والانحراف؟!..

أبي – رعاك الله -:

.. في المدرسة.. وفي إحدى حصص التربية الإسلامية.. كانت المعلمة تتحدث عن تفسير قوله – تعالى -: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ١٣].

.. وشَرَعت في شرحها تقول: إنَّ على المرأة أن لا تمدَّ بصرها إلى ما يرغبها في الفاحشة ويرغِّبها في الرجال من النظر إليهم أو إلى صورهم؛ إذ هو السر في إتباع ذلك بقوله ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فحفظ البصر طريق لحفظ الفرج..

.. وشَرَدْتُ عن شرحها وأنا أتذكَّر ما أراه كل يوم على الشاشة.. حينما يخرج الممثل.. وقد استكمل زينته، وأظهر مفاتنه، وهو يتغزل بتلك الممثلة.. أو يبادلها كلمات الحب والغرام.. ويدغدغ مشاعرها بمعسول الألفاظ، وهي ليست حرمًا له.

أو حينما أشبع لا من رؤية الرجال فقط وإنما من عوراتهم إلى ما دون السوأة في كثير من المشاهد الرياضية..

.. فتضطرم النار حينئذ وتتأجج.. شأن أكثر الفتيات أمام تلك الصور.. كل تلك المشاهد أراها وأنت إلى جانبي.. أو وأنت تعلم أني أراها، فتضطرب لدي المبادئ، وتختلط الصور.

أبي – حفظك الله -:

لست أنسى يوم أن كنتُ وأهلي معك في السَّيارة.. لزيارة أحد الأقارب.. فاضطرتنا الإشارة للوقوف.. وحين رأيت إلى جانبنا سيارة مليئة بالرجال أسرعت بالالتفات إلي وقلت: غطي وجهك جيدًا.. فاستجبتُ سريعًا، وغطيتُ وجهي.. ولكن..

ولكن وفي مساء ذلك اليوم نفسه كنَّا – كعادتنا – أمام المسلسل على الشاشة ظهر فيه عددٌ من الممثلات لم يغطين وجوههن!!.. ولم يتركن الحجاب فقط.. بل وأظهرت مفاتنهن، وأبدين زينتهن..

وكنت – من غير شعورٍ أو بشعور مطموس بهوى – معجبًا بعرضهن.. وحسن أدائهنَّ.. وتحفظ أسماء عدد منهن.

.. فغبت عن الموقف.. وحَلَّقتُ مع خاطري في حوار بعيد طويل.. لو فعلتُ مثل هذه المرأة هل سيعجب بي أبي؟!

لكنه اليوم أمرني أن أغطي وجهي جيدًا!!

هل ترك الحجاب حلال للمثلات؟!.. فلأكون ممثلة إذن حتى يحل لي كشف وجهي!!.. ولكن..

.. هل سيرضى أبي أن أكون ممثلة؟.. ولماذا؟

ولما يُعجب بهن أبي وهن لم يغطين وجوههنَّ؟!..

ولماذا لا يأمرهن آباؤهنَّ بتغطية وجوههنَّ؟.. وإذ لم يكن لهن آباء فلماذا لا يأمرهن أبي كما يأمرني؟ وإذا كان لا يستطيع فلماذا لا ينهاني عن رؤيتهن بهذا الشكل؟.. وهل ضروري أن ننظر إليهن؟!.. وهل ضروري أن ندخل في مترلنا ما يعرض صورهن؟..

وإذا لم يحل للرجال أن ينظروا إلى وجهي فيأمرني أبي بتغطيته جيدًا فلماذا ينظر هو إلى وجوه تلك النساء؟.. بل وأكثر من الوجوه!!.. وينحشر فؤادي بفيض من التساؤلات الهادرة.. الحائرة.. أفرزه لك؛ علهُ أن يكون منفِّسًا عن بعض الضنك الذي أتخبط فيه.. غير أني أحمد الله دائمًا أن صرتُ عارفةً لحكم الحجاب الشرعيِّ.. مقتنعة بأهميته وجدواه.. عالمة بخطر تركه.

.. لكن الذي لا يعجبني ويؤثر علي الرضا بدخول مثل تلك السافرات إلى مترلنا دون أن يلتزمن الحجاب.. والذي طالما عوَّدتني الالتزام به وما حالي وحالك أمام تلك المشاهد بخارج عن بيت

الشعر الذي يقول:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء!

هذان الموقفان.. [غيضٌ من فيض].. من مواقف التناقض.. والمصادمة للسنن الشرعيَّة.. والتربية المباشرة وغير المباشرة لكل ما ينافي الخلق والدين.. ينفثها هذا الجهاز والذي سمحت أنت له بالدخول إلى المحضن الذي نتربى فيه..

أبي – وفقك الله -:

ومما يجب مفاتحتك فيه أيضا الاعتراف لك بما تمتلكه من قلب كبير وثقة ممتدة.. تشبع الرغائب.. وتلبي المطالب.. ولكن.. وبعد ذلك كله تبين لي أن الثقة لا تعني أبدًا فتح الأبواب والدروب دون رقابة أو اهتمام.. ولا تعني أبدًا ترك عود الثقاب مشتعلاً قرب إناءً ممتلئ بالوقود.. ولا تعني الثقة أبدًا إثراء المترل بما نشتهيه ونرغبه ونطلبه من ملذات المادة الفانية على حساب الجوهر الذي خلقنا من أجله..

.. أقول هذا الكلام وأنا أتصفح في خاطري رصيدًا ضخمًا من التجاوزات الشرعيَّة والأخطاء التربوية والتي أذكتها يداك ونفخنا فيها بأفواهنا..

أذكر منها للمثال لا للحصر:

* موافقتك شبه المفتوحة لنا في الاختلاف إلى السوق والذهاب إليه.. دون محرم أو رقيب.. لشراء ما يعنُّ لنا حتى لو لم يكن ذا بال!!.. وكم لاقينا في السوق من تعرُّض للفتنة كثير! وكم جرَّ

السوق من آلام!.. وكم عقد السوق بين شيطان وشيطانة عقدًا إبليسيًا دون شروط!.

فلقد كنا نخرج إلى السوق، فتزاحم الرجال، ونكثر الحديث معهم على أشياء غير ضرورية، ونخاطب الباعة وهم في أوج زينتهم شكلاً ومنطقًا ونمايز بينهم.. فهذا بائع حلو الكلمة.. عذب الأسلوب..

وذاك جميل المنظر، باسق الطول، أنيق، وذاك أحسن من هذا وذلك أفضل، والنفس تميل، والهوى غلاب.. ولقد كنا نجول فنرى البائع لشئون المرأة الخاصة.. رجلاً.. زيَّن نفسه.. والآن لسانه.. والشيطان يعرضه بصورة أحسن مما هو عليه.. وتبدأ المبايعة بلغة يفرض عليها الموقف أن تكون غير نظيفة، وتتداول الأيدي ما أستحى من ذكره لك.. وتتباين الاختيارات، فتُسترجع هذه لأنها صغيرة!! وتؤخذ الأخرى لأنها كبيرة وتلك قصيرة!! والولي غافل، والشيطان حاضر.. يؤجج في الكلمات.. ويوقد النار في النفوس ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان**» ولئن كنت تحسُّ بعظم التبعة في بعض الأحيان فتأمر أمِّي بالخروج معنا فإنه لا يفوتني الآن أن أنبِّهك لعدم صواب هذا التصرف.. لأن المرأة في أصلها ضعيف أينما حلت.. رقيقة رحمية.. تغلبها الكلمة اللينة.. وتؤثِّر فيها حركات الوجه.. ويثني رأيها شيء من الإلحاح!!

ومن الأمثلة أيضًا:

* يوم أدخلت في منزلنا (امرأة) لا يربطنا بها نسب أو رحم..

حتى لكأنها مدرسة متنقلة تدرسنا أنت فيها كيف تعامل المرأة الرجل الغريب عنها!! فنراك وأنت تناديها وتأمرها.. ونراك – وهي ليست بمحرم لك – تكلمها وهي كاشفة عن وجهها.. أو تناولها بعض الأغراض أو تأخذ منها.. أو عندما أحضرتها من المكتب وحدك من دون محرم، وكذلك يوم ذهبت بها إليه مسافرة.. ولا نحفظ كم كنتَ تعتب على جارنا تهاونه في ترك نسائه مع السائق!!

.. أفيجوز لك مع النساء ما لا يجوز للسائق؟!

أم هل يجوز لتلك المرأة ما لا يجوز لنساء جارنا؟!

وكذلك حين تأمنها راضيًا أن تكون حاضنة لأخي الصغير.. فيشبُ في حجرها وقلبه متعلق بها؛ بحكم قربها منه.. فيسرى إليه عدوى ما تعتقده هذه المرأة من سلوك وأخلاق وحتى المبادئ والمعتقدات كما نسمع في كثير من القصص، وكذلك أيضًا حين ننظر لتلك المرأة من منظار المجتمع فإنَّ كثيرًا من الرجال يزهد بالفتاة التي لم تتعلم أن تقوم بشئون بيت زوجها أو تجهل شيئًا منه.. أو حتى من تنوء بتحمُّله لأدنى سبب.. وذلك كلُّه لا يكثر وجوده إلا عند من أُحْجِبَتْ عن العمل في وقت تربيتها لوجود مثل تلك (الخادمة).

أفتراك يا أبي بعد هذا ترى مكوثها في البيت سائغًا؟!

ومن الأمثلة أيضًا:

* تهاونك في وضع الهاتف موضعه الصحيح.. حينما تتركه في كل زاوية من زوايا المترل.. أو في كل غرفة منه.. وأنت تعلم أنه بوابة كبيرة يدخل معه الرجال والطامعون!!

يوم أن تتوالي رنَّات الهاتف.. ولا أحد حوله إلا أنا، فأرفع السماعة، فيسألني الرجل مخطئا من يريد، فأردُّ عليه، فيعيد سؤالا آخر مطليٌّ ببراءة خبيثة ثم كلمة مدح وإطراء.. وأخرى فيها قصد ودهاء.. والعذارى يغرُّهنَّ الثناء، فأغلق الهاتف في وجهه، ثم تتوالى رناته أخرى فأعزم على أن لا أرفع السماعة.. ولكن.. من يدري ربما لا يكون هو؟!.. فأرفع السماعة، فيسابقني إلى ترحيبة مخدِّرة.. ولوم لطيف كما لو كان هناك علاقة بعيدة.. ويلومني الشيطان: أنت مخطئة!!.. وهو كلامٌ.. وكلامٌ فقط.. والمكان خالٍ.. وأنت بالفعل كما يقول في وصفه وإعجابه.. والنفس في شهوتها جائعة تفتقر للإشباع.. فأنزلق مع التيار، وأنساق مع الكلام في رحلة غامضة آثمة.. نعم يا أبي. أعلم أن الخطأ نتقاسمة أنا وأنت. وأنَّ لي نصيب الأسد منه.. غير أن لك – يا أبي – حظًا وافرًا من الخطأ حين تفتح ذلك الباب دون حارس أو رقيب.. أو حتى معالجة وضعية ذلك الجهاز وترشيد مكانه.

ومن الأمثلة أيضًا:

* اللامبالاة الظاهرة فيما يخصُّ المظهر.. فكم كنا نلبس الضيق من الملابس وتراها وهي تصف أعضاءنا وصفًا أحسن مما هي عليه.. فلا نرى منك أمرًا.. أو نهيًا.. أو تنبيهًا.

ومثله المفتوح.. والقصير.. والبنطال.. والخفيف. ولا أكتمك ما ترسَّخ في عقولنا منذ الصغر من أن بعض تلك الأعضاء ليست من العورة.. وأنها خارجة عن دائرة الحياء؛ لأنها لم تتعود الستر منذ الصغر!! أو حينما ترى قصّات الشعر غير العادية والإفراط فيها.. ثم

لا نراك تحرك ساكنًا معها!! وكم رجف فؤادي عندما طرق سمعي حديث النبي ﷺ: «**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**».

وكذلك حينما نركب معك، فتفوح رائحة العطر في السيارة.. وأنت تعلم أنها ليست منك، فلا تلقي لذلك بالاً والنبي ﷺ يقول: «**أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية**».

أو حينما ترى منزلنا وقد امتلأ بكلمات العشق والحب والهيام وهي ترتفع من كل جهاز فيه من أصوات المزامير المخدرة.. والطبول الفاتنة ثم لا نرى بعد ذلك توجيهًا أو إرشادًا وكأن الغناء حلال محض جاءت به الشريعة!!

ذلك ما أتذكره الآن.. وغيره كثير ربما تلاشى مع فوران الذاكرة غير المنضبط، وأشكرك يا أبي؛ إذ تحرص مجتهدًا على بعض الأمور وإن كنت غير ملتفت إلي حكم الشرع فيها..

والاجتهاد هنا لا يسوِّغ أبدًا اقتراف تلك الأمور المنهي عنها..

وأخيرًا.. أبشرك يا أبي أني سأختط لي دربًا هو عن كل ما ذكرتُه لك من تجاوزات بعيد.. وإلى الدرب الذي دعا إليه الله ورسوله ﷺ قريب.

أبي..

وأختم كلامي بسؤال سيظلُّ شاهرًا رأيته وهو:

هل تفكِّر جديًّا في التغيير يا أبي لكل ما ذكرته لك؟

... الجواب بين يديك..

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته..